

"مسألة غائبة" إسحق إيشطين

تجعل الفلسطينيين يرحبون باليهود، بل يدعونهم للاستيطان بمحاذاة قراهم.

وهنا لا بد من التنويه بأن قلق الكاتب من إهمال الحركة الاستيطانية الصهيونية للوجود العربي في فلسطين وتمسك الفلسطينيين بأرضهم لا ينبع من مناصرته لأصحاب الأرض، وإنما من إمكانية تضرر المشروع الاستعماري الصهيوني جرّاء عدم التعامل بحكمة مع الفلسطينيين ومحاولة تفادي غضبهم، وإقناعهم بأن المشروع الاستعماري قد يعود عليهم بالفائدة. وتعكس وجهة نظر إيشطين هذه جزءاً من النقاشات التي كانت تدور داخل مكونات المشروع الصهيوني الاستيطاني بين تيارات براغماتية وأخرى دوغمائية متشددة، تطرح كل منهما أسلوباً مختلفاً لإتمام مشروع السيطرة على الأرض واستجلاب اليهود وإقامة دولة يهودية، الأمر الذي كان سيسفر عن نكبة

تُترجم في هذا العدد من الأرشف أجزاء من خطاب إسحق إيشطين أمام الكونغرس الصهيوني السابع في بازل عام ١٩٠٥. إيشطين هو استاذ في علم اللسانيات، وقد تم إرساله إلى فلسطين عام ١٨٨٦ من قبل جمعية «أحباء صهيون» وبتمويل من البارون روتشيلد للتخصص في شؤون الزراعة في فلسطين. ينتقد إيشطين في هذا المقال سياسة شراء الأراضي والاستيطان في فلسطين، ويؤكد آنذاك أنها تجعل الفلسطينيين عدائين تجاه اليهود، وأنها إذا ما استمرت ستؤدي إلى انفجار الفلسطينيين بوجههم. يقترح إيشطين أن يستوطن اليهود في الأماكن الخالية والتي لا يوجد أي جدل حول ملكيتها، كما ويشير إلى أهمية أن يستفيد الفلسطينيين من الاستعمار، من خلال أساليب الزراعة الحديثة، وأماكن العمل والطب وغيرها، التي يجلبها المستوطنون معهم، وأن الوفرة وتقنيات الزراعة الحديثة سوف

فلسطينية بالضرورة. كذلك فإن وجهة نظر إِبشتين هذه تذكر بالنقاشات التي شهدتها غالبية المشاريع الاستعمارية البيضاء حول التعامل مع السكان الأصليين في المناطق المستعمرة. ولعل إِبشتين يعكس وجهة نظر المؤيدين لفكرة الاستعمار الذي يجلب معه الحضارة والتقدم والفائدة لضحاياها.

يفتح إِبشتين مقالته بنقد للحركة الصهيونية، التي لا تأخذ بجدية الوجود العربي الفلسطيني في فلسطين:

"من بين الأسئلة الصعبة، في ما يتعلق بإحياء شعبنا على أرضه، هناك سؤال واحد، يساوي كافة الأسئلة: سؤال تعاملنا مع العرب. هذا السؤال، الذي تتعلق بإجابته نهضة أمتنا القومي، لم يتم نسيانه فقط بل إنه غير موجود إطلاقاً في أدبيات حركتنا. صحيح أنه في السنوات الأخيرة تعرّض، في أحيان نادرة، بعض الكتاب لهذا الموضوع؛ لكن هذه كانت ادعاءات القطريين، الذين هدفوا لإثبات عدم امكانية أي فعل حقيقي أو سؤال الحركة العربية. الصهاينة الأميون لم يتعاملوا مع سؤال «كيف يجب أن نتصرف مع العرب عندما نأتي لشراء الأراضي في أرض إسرائيل». بالطبع لم يقصد الصهاينة عدم التطرق لأحد أهم شروط «الليشوف»؛ هم لا يشعرون بأهمية السؤال لأنهم لا يعرفون البلاد جيداً، ولا الماكثين فيها بشكل خاص، وذلك لافتقارهم لحس شعبي وسياسي.

حقيقة أنه كان بالإمكان التغاضي عن سؤال أساسي كهذا، وأنه بعد ثلاثين عاماً من العمل «الليشوفي» نتحدث عن الموضوع وكأنه موضوع جديد للبحث، هذه الحقيقة المرة، تؤكد أن الخفة مسيطرة على حركتنا، وتشير إلى أننا ما زلنا نلحق في السحاب ولا ندخل لتفاصيل الأمور وجوهرها (..) منذ انطلاق الحركة القومية وحتى الآن لم يتوقف الفاعلون الصهاينة عن الاهتمام بأنظمة البلاد وقوانينها، في حين أن سؤال الشعب الساكن بها، عمالها وأسيادها الحقيقيين، لم تلقَ لفتاً للنظر لا على المستوى العملي ولا النظري».

ومن ثم ينتقل إِبشتين إلى الإشارة أن الحركة الصهيونية تعبر اهتماماً كبيراً لجوانب أخرى من الاستيطان، مثل شراء الأراضي، وذلك على حساب سؤال وجود الشعب الفلسطيني الذي لن يرحل من تلقاء نفسه عن الأرض:

«لكل المواضيع المتعلقة ببلادنا نولي أهمية، نتناقش حول كل شيء، نهلل ونكسر كل شيء، إلا أننا نسينا شيئاً واحداً: يوجد في البلاد التي نطمح فيها شعب كامل، متمسك بها منذ مئات السنوات ولم يخطر بباله الرحيل عنها يوماً.

في الوقت الذي نحس أن حب الوطن في كل جوارحنا، ننسى أنه أيضاً للشعب الحي فيه يوجد شعور وروح مُحبة. العربي،

ككل إنسان، مرتبط بوطنه بارتباطات قوية. كلما قل تطوّر الإنسان كلما ازداد الرابطة مع أرضه ومحيطه وسيكون من الأصعب عليه ترك قريته وبستانه. الكامل لن يترك أرضه ويذهب بعيداً؛ هو مرتبط بطبيعة مولده بتقاليد عديدة، وأحد أهمها: قبور آبائه. لكي نفهم عمق هذا الإحساس، يجب أن نعلم كم هم معجبون بأموالهم، وكم مرة يزورون قبورهم ويشاركونهم كل أحداث حياتهم، بأفراحهم وبأحزانهم. حتى اليوم ما زال صوت عويل النسوة يصدح في أذني، يوم خروج عائلات قرية الجاعونة، روش بينا، عندما انتقلوا إلى حوران شرقي نهر الأردن. الرجال ركبوا على الحمير، والنساء مشين وراءهم باكيات، ويملاً نحيبهن المرح. أحياناً كانوا يتوقفون ويقبلون الأحجار والرمال..»

وينتقل إِبشتين للتشكيك بسياسة شراء الأراضي من الفلسطينيين، لكونها سياسة غير ناجحة، وأنها ستؤلب الفلسطينيين على الحركة الصهيونية، قائلاً:

«فلنفترض، للحظة، أنه في أرض أجدادنا لا يجب أن نهتم بأحد غيرنا، وأنه مسموح لنا شراء أي أرض تقع تحت أيدينا. هل سيعمر هذا النوع من شراء الأراضي؟ هل سيصمت المسلوبون ويتقبلون ببرودة ما يُفعل لهم؟ ألن يستيقظوا في نهاية المطاف ليردوا بقوة القبضة كل ما نهب منهم؟ ألن يتحدثوا مع الغرباء، عن سلبهم أرضهم، ومن يعلم إن لم يكونوا المتهمين والقضاة في آن واحد. والناس، الشجعان، مسلحين كلهم، قناصين رائعين، فرسان ممتازين، متعصبين لأمتهم وبالأخص لدينهم. وهذا الشعب، الذي لم تقم الثقافة بإضعاف قوته (البدنية) هو قسم صغير من محيط كبير حول بلادنا: في سورية، الأردن، جزيرة العرب ومصر.

من السهل الاستخفاف بهذه الأمور والتعامل معها على أنها خيانة لفكرنا القومي القديم والأبدى؛ لكن إذا حسبنا الأمر جيداً، يجب أن نعترف، أنه سيكون من الكارثي أن لا نعلم مع من نتعامل، وأن نحسب جيداً قوتنا وقوة ومن يقف أمامنا. الويل لنا إذا أغمضنا أعيننا عن رؤية ما سيأتي، أعجل مما نتوقع. يمكن القول بكل تأكيد إنه لا يوجد حتى الآن في أرض إسرائيل أي حركة عربية بالمعنى القومي والسياسي للمصطلح. لكن للحقيقة، ليس هذا الشعب بحاجة لحركة، ولا حاجة لإحيائه، لأنه لم يمت يوماً ولم يتوقف عن الحياة للحظة. في تطوّر الجسماني يعلو عن كل شعوب أوروبا. هو شعب نباتي، ويشرب المياه كثيراً، جسمه أقوى من آكلي اللحم وشاربي الكحول. لا يجب أن نستهر بمسحقاته، وبالأخص لا يجب أن نريده بسوء من خلال الاستفادة من استغلال أشقائه

له. ممنوع أن نستفز أسداً نائماً! لا يجب أن نركن على الرماد الذي يغطي الأرض: شرارة واحدة من شأنها إشعال نار لا يمكن إخمادها. بعيدة عني فكرة أنه في أرضنا يجب أن نتهاون ونخضع أمام السكان. لكن بشجاعة وجرأة. يمكننا كسب احترامهم ونجلس آمنين في مستوطناتنا؛ وفي أرض الشمس نمتلك القدرة على تغيير القوة، وتجديد دمنا والاستيقاظ.»

ويحاول الكاتب، في الجزء الثاني من المقالة، إعطاء حلول لمعضلة شراء الأراضي والمشاكل الناجمة عنها:

"عندما نأتي لنشتري الأراضي في أرض إسرائيل، علينا الفحص جيداً، لمن هذه الأراضي ومن له حق بها. وعلينا أن ننهي شراء الأرض بشكل لا يضايق أحداً. سنكون مجبرين أن نسحب أيدينا من أراضي الزراعة؛ وما الذي سيتبقى لنا للعمل ببلادنا؟ ها قد وصلنا للسؤال المهم، المتعلق بكافة الأسئلة المهمة الأخرى: كيف يمكن أن نمتلك الأرض بدون المس بالآخرين؟»

ويسهب إِبشتين قائلاً: «نأتي إلى أرضنا للاستيلاء على ما لم يستول عليه أحد، في كل الأماكن التي لم يمسك بها أحد، أن نجد ما لم يجده الآخرون، ونجد فيها ما هو لمصلحتنا وسعادتنا.»

ومن ثم يوسّع إِبشتين حول رؤيته لاستعمار فلسطين، ليكون الاستعمار، أولاً، قائماً على التوافق مع الفلسطينيين، من خلال إيجاد طرق يستفيدون عبرها من الاستعمار. وثانياً، يدعو إِبشتين إلى استخدام العلم لتحقيق التفوق وتحديداً في مجال المياه، واستيطان أعالي التلال والجبال، الموجود في أدبيات الحركة الصهيونية في حينه.

يقول: «عند الحديث عن المياه في أرض إسرائيل نحس بالغربة حول قصر نظر سكانها، الذين لا يفعلون شيئاً لكي يكثر من مياههم، بل لا يخطر على بالهم ما يمكن فعله بها (..) لا يجب أن نترك الماء ينهمر إلى الأرض بدون فائدة،

يجب بناء الحواجز له وخلق برك مياه كبيرة تكفي لعشرات الهكتارات. (..) بشكل عام يجب أن تكون طرق تصريف المياه داخل الأرض وعلى سطحها على رأس العلوم، التي نحتاج أن نستغلها في اليبشوف.»

ويضيف: «الجبال هي المكان التي من شأن شعب يعاني من نقص الهواء والضوء أن يعيش بها، لكي يحسن ويطبب دمه، يقوي عضلاته. يكفي النظر إلى الذين يعيشون في الجبال في أرض إسرائيل، إلى طولهم، شكلهم، جمالهم، وإلى شاكلة الذين يعيشون في المروج والساحل، لكي نعرف مفعول الجبال على سكانها.»

يؤكد إِبشتين على أن الخطة هي أن يستولي اليهود على الأراضي ويقوموا بتشغيل العرب فيها، وأن يستفيدوا منها ويروا الفائدة المباشرة عليهم، من حيث أساليب الزراعة وتربية المواشي، وكذلك أن يكون بإمكانهم تلقي العلاج عند طبيب يهودي.

يقول: «في الأيام الأولى سوف يشككون بنا، ولن يؤمنوا بكل الأمور الجديدة، ولا في نتائجها، ولكن من يوم ليوم، ستظهر صحة طريقنا (..) ومن ثم سوف يعترف بنا الفلاحون العرب، لما سوف يرونه من محاسن، ولن يلعنوا اليوم الذي أتى فيه اليهود على أرضهم، بل سوف يتذكرونه كيوم خلاص وعون. هذه هي الطريقة التي سوف نستعملها عندما نشترى أراضي الفلاحين. كل أرض جديدة سوف نمتلكها يجب أن تكون أرض ضوء ومنفعة للبيئة المحيطة ولمنفعة العمال الذين يعملون بها. هكذا، وبعد عدة تجارب، ستنهال علينا مئات القرى التي ستطلب من اليهود أن يأتوا إليها.»

إعداد وترجمة: وئام بلعوم